"إذا عرفت نفســـك، وليس العدو، فســـوف تعاني هزيمـــة بعد كل مرة تحـــرز فيها نصرًا"

المفكر الاستراتيجي الصيني صن تسو

obeikan.com

استهلال

كنا نظن أن التجارب التي تعرضت لها فصائل «الحركة الإسلامية» على مدار العقود الماضية ستؤدي إلى مزيد من تمدينها، وتكيفها مع البيئة الاجتماعية التي تعيش فيها، وتفاعلها الخلاق مع القوى السياسية والفكرية المغايرة أو المختلفة معها في المنهل والمبدأ والمسلك، لكن للأسف ازدادت هذه الحركة تطرفا وتكلسا وتزمتا وعزلة، وأنتجت للعالم «القاعدة» الذي ظن المتعجلون أنه نهاية الرحلة، وبعد هزيمته، ستدرك الجماعات والتنظيمات والفرق التي توظف الإسلام في تحصيل السلطة السياسية والثروة الاقتصادية، وتستعمل العنف المفرط في سبيل هذا، أن الوقت قد حان لمراجعة التفكير والتدبير، لكن ما إن أفل نجم القاعدة، حتى بزغ نجم «داعش» الذي صار نسخة أشد عنفا وقسوة وتزمتا وكراهية ونفورا من القاعدة.

وكانت هذه الظنون الطيبة قد زادت مع انفجار الهبات والانتفاضات والثورات في بعض البلدان العربية، والتي أثبتت للجميع أن حضور الجمهور الغفير، أو بمعنى أدق

الشعب، في المشهد هو الذي يغير المعادلة، ويجعل من الممكن إسقاط حكام ورحيلهم عن السلطة، وليس حمل السلاح مثلما فعلت الجماعات المتطرفة والإرهابية في مصر والجزائر وغيرهما.

فوقتها اعتقد البعض أن قادة هذه الجماعات قد اتعظوا، وأنهم بدلا من العودة إلى حمل السلاح، والدخول في صراعات دموية مفتوحة، سيعودون إلى صفوف الجماهير، متناسين كل تراث في تكفير الناس، والاستعلاء عليهم بدعوى أن أتباع هذه الجماعات هم «العصبة المؤمنة» أو «الفرق الناجية» أو «وكلاء الله في الأرض» وأن الناس يعيشون في «جاهلية» جديدة.

لكن ما جرى سار في الاتجاه المضاد، فعقب إسقاط حكم الإخوان بخروج جماهير غفيرة في مصر، والتظاهر ضدهم في تونس حتى تم إجبارهم على التراجع خطوات إلى الخلف، وجدنا بعض قادة «الجماعة الإسلامية» في مصر، ممن سبق أن أعلنوا مراجعة أفكارهم فخرجوا من السجون في ترتيب مع السلطات المصرية أيام حكم حسني مبارك، يعودون إلى سابق عهدهم، فيصرخون بتعبيرات من على منصات الإخوان عن «سحق الشعب المصري» و«الإيغال في دمه» وتكفير كل من لا يقر بشرعية حكم جماعة الإخوان.

ونشطت في ركاب هذا «الخلايا الجهادية» التي كانت نائمة أو خائفة وراحت تعلن عن نفسها صراحة، وتوالت

أسماؤهـا في تصريحـات وبيانـات أعقبـت عمليـات إرهابيـة دمويـة شـهدتها السـاحة المصريـة، لكنهـا لم ترجـع إلى الإخـوان وأتباعهـم سـلطة فقدوهـا، وجعلـت النـاس موقنـين مـن أن كل مـا صـدره هـؤلاء مـن خطـاب تصالحـي بـه مسـحة أو غـلاف مدنـي وتحديثـي لم يكـن سـوى دعايـة جوفـاء.

لكـن كل هـذا تم علـى الهامـش، أمـا المـتن فـكان ظهـور «داعـش» الـذي اسـتغل تحـول الثـورة السـورية إلى حـرب أهليـة ثـم صـراع إقليمـي ليعلـن عـن قيـام مـا تسـمى «الدولـة الإسـلامية في العـراق والشـام» معتمـدا أو متكئـا علـى نـواة تتمثـل في «تنظيـم القاعـدة في بـلاد الرافديـن» و«الدولـة الإسـلامية في العـراق»، ليصـير بعـد زمـن وجيـز قبلـة لـكل الإرهابيـين والمتطرفـين والتكفيريـين مـن بقايـا التنظيمـات «الجهاديـة» سـواء في الـدول الـتي شـهدت انتفاضـات وثـورات أو في دول أخـرى لم تـبرأ مـن تصاعـد التطـرف الديـني في العقـود الأخـيرة.

بـذا يبـدو «داعـش» وكأنـه الطـور المتأخـر، وإن لم يكـن الأخـير، مـن مسـار العنـف الـذي ارتكبتـه وألفتـه جماعـات وتنظيمـات رفعـت لافتـة الإسـلام أمـام عيـون شـباب المسـلمين، وخدعـت بعضهـم، فانضمـوا إليهـا، وهـم يظنـون أنهـم بهـذا ينصـرون الديـن، ويحققـون أهدافـه، ويقيمـون الشـرع، ويحققـون مقاصـده، لتتسـع رفعـة الدمـاء والخـراب باسـم الإسـلام، وهـو منهـا بـرئ.

إن ما جرى ليس اتعاظا بأن الجماهير التي تغضب في سلام هي القادرة على التغيير بل على النقيض اعتقادا بأن حركة الجماهير تلك لن تفضي إلى شيء بالنسبة لجماعات تربصت بالناس والأوطان وخططت لسرقة ثورات لم تصنعها، بل إن أفكارها وتصوراتها، تناقض منطق التغيير إلى الأفضل، الذي قصده الغاضبون حين نزلوا إلى الشوارع وغصت بهم.

لهذا، ووفق طريقتها العابرة والسطحية في تقييم الأمور، سرعان ما عادت هذه الجماعات إلى منطقها القديم الذي لا يعرف سبيلا للتغيير سوى العنف المفرط، بلا تحسب ولا ورع ولا تردد. ومن هنا رأت فيما يفعله «داعش» هو السبيل، ليس فقط للانتقام، إنما أيضا لتحقيق الأهداف الكبرى. وراحت تروج لذلك بكل ما أوتيت من قوة، ليصبح الحل الوحيد هو إعلان «الدولة الإسلامية» فوق بحور من الدماء، وتلال من الأشلاء.

وإذا كان «داعش» قد صار النموذج بالنسبة لهؤلاء فإن دراسته على وجه دقيق تصبح أمرا مهما، وهو ما يحاول أن ينهض به هذا الكتاب، الذي يعرض القصة الكاملة لهذا التنظيم، من حيث مناهج فهمه والتعامل معه، والمسار الذي سلكه، وطريقة تكوينه، ومكوناته الأساسية والفرعية، وأفكاره، ومصادر تمويله، وطبيعة مجتمعه، وتكيكاته الحربية، وخرائط انتشاره، ومنابر إعلامه، والبيئات الحاضنة أو الموظفة أو المنتجة له، والقوى الدولية التي

تغذيه وتوظفه في خدمة أغراضها، وأخيرا ما سيؤول إليه، أو مستقبله، وما ستذهب إليه التنظيمات الإرهابية إن تفكك ولحق بـ «القاعدة» وصار أثرا من بعد عين.

ويدرس الكتاب داعش من خلال موضوعات أو عناوين ولافتات قد تبدو متفرقة، في نظر المتعجلين، لكن كل منها يشكل جزءا من الصورة الكلية له.

وما يأتي تحت هذه العناوين آثرت عرضه بطريقة مختلفة، تجمع بين سلاسة التعبير وعمق التحليل، بقدر المستطاع، نظرا لأن الكتاب لا يستهدف مخاطبة الأكاديميين ولا المختصن بدراسات «الإسلام السياسي» إنما يخاطب جمهورا عاما، ويرمي بالأساس إلى تحصين أذهان وأفهام قطاعات من شبابنا تمكن داعش من خلال شبكته الإعلامية الاحترافية أو الذكية من الوصول إليها، وهو ما يشكل خطرا داهما على بلادنا، لا بد من التصدي له، وكشف أفكاره، وفضح مراميه، وقطع الطريق عليه.

لهذا بدأت الكتاب بعبارة الفيلسوف والمفكر الاستراتيجي الصيني صن تسو: «إذا عرفت نفسك، وليس العدو، فسوف تعاني هزيمة بعد كل مرة تحرز فيها نصرًا»، التي تطالب صراحة بمعرفة «العدو» أيا كان. وقد صار «داعش» من ضمن أعداء العرب والمسلمين في الوقت الراهن، بل إنه يشكل عدوا للبشرية جمعاء.

إن الحرب ضد التنظيمات الإرهابية لا يجب أن تقتصر على الطرق الأمنية والعسكرية، بل هي «حرب أفكار» بالأساس، وهذا ما ينطلق منه هذا الكتاب، فيسعى، بانضمامه إلى كتابات ودراسات مماثلة، إلى أن يكون جزءا من هذا النوع من الحروب، الذي نحن في حاجة ماسة إليه.

obeikan.com